في الأدب الشرقي

نظرات في الأدب الفارسي

منذ نشأته الى إغارة التتار

للدكتور عبد الوهاب عزام

مهما تختلف الآراء في تاريخ أقدم آثارة من الأدب الفارسي الحديث، فان مؤرخا يستطيع أن يقول أن ظهور هذا الأدب صحب ظهور الامارات الوطنية في إيران، فهذه الامارات بعثت الأمل في نفوس الفرس وأتاحت لهم فرصة يستطيعون فيها التقرب بالمدائح وغيرها الى أمراء يفهمون عنهم، ويعجبون بهم، ويسرهم أن تحيا آداب لغتهم وآثار آبائهم.

وأمر آخر يسترعي نظر مؤرخ الآداب الفارسية، هو ظهور هذه الآداب في الديار النائية عن البلاد العربية وعن بغداد حاضرة الخلافة والمدنية الاسلامية. اذ كانت هذه الديار أبعد من سلطان الأدب العربي الذي كان ترجمان حضارة الاسلام كلها حقبا طويلة. ثم استقلال الامارات كذلك يبدأ في الأقطار النائية، وانما تنقص الارض من أطرافها. ومن أجل ذلك أتيح لخراسان البعيدة مهد أول دولة فارسية عظيمة في العصر الاسلامي أن تكون مبعث الأدب الفارسي الحديث. ولم تنل هذا الشرف فارس مهد الدول القديمة على تبريزها في العلم وتقدمها على خراسان فيه. حتى يقول ابو أحمد الكاتب كاتب الأمير اسماعيل بن احمد الساماني:

لا تعجبن لعراق رأيت له ... بحرا من العلم أو كنزا من الأدب
واعجب لمن بلاد الجهل منشؤه ... إن كان يفرق بين الرأس والذنب

يريد بلاد الجهل ما وراء النهر وجهات خراسان.

ولى المأمون طاهر بن الحسين خراسان ثم جعلها ولاية لذريته فاستمروا يلونها حتى سنة ٢٥٩ نحو ٥٠ عاما. ولكنها كانت أمارة صغيرة قصيرة المدة. وكانت الأسباب لما تتهيأ لانبعاث الأدب الفارسي. ثم بنو طاهر لم يعنوا بالأدب الفارسي. وروى أن رجلا أهدى كتابا الى عبد الله بن طاهر وهو في نيسابور فسأله ابن طاهر ما هذا؟ قال قصة (وامق وعذراء) التي ألفها بعض الحكماء للملك أنوشروان. فقال الأمير: نحن قوم نقرأ القرآن ولسنا في حاجة الى غير القرآن والحديث. فالقوا هذه الكتب التي ألفها المجوس؟ ثم أمر فألقي الكتاب في الماء. وأمر أن يحرق كل كتاب في ولايته بلغة المجوس. ويقول عوفي عن آل طاهر: أنهم لم يكن لهم اعتقاد في لغة الفرس.

وفي سنة ٢٤٧ هـ سنة موت المتوكل ظهر في الشرق يعقوب بن الليث الصفار وهزم جند الخليفة أول الأمر وقال — كما يروى نظام الملك — إنه يريد خلع الخليفة، وكان شجيا فيما يقال. وخلفه أخوه عمرو الى أن استنجد الخليفة المعتمد بنى سامان فهزموه وأزالوا دولته.

والفرس يرون في يعقوب بطلا فارسيا لأنه أول ثائر على الخلفاء. أقام سلطانه على رغمهم أكثر من أربعين عاما. وقد سوغت لهم هذه العقيدة أن نسبوا الى طفل ليعقوب أنه نطق بأول بيت من الشعر الفارسي الحديث، وفي الحق أن بلاد الفرس لم تعد الى حكم الخلفاء الحقيقي بعد ثورة يعقوب.

ولكن أول دولة فارسية عظيمة لها أثر يذكر في الأدب الفارسي كانت الدولة السامانية. والسامانيون ينتسبون الى بهرام جوبين أحد أعيان الفرس الذي ثار أيام الساسانيين على كسرى برويز، والبيروني يؤيد هذه النسبة. وقد بعثت الآداب الفارسية مع هذه الدولة — فيما نعلم —

وبينما كان السامانيون متسلطين في خراسان وما وراء النهر ظهر بنو بويه وعظم سلطانهم حتى استولوا على بغداد سنة ٣٣٤، وسافروا نسبهم إلى بهرام كور أحد ملوك الساسانيين؛ وما زالوا يصرفون الأمور حتى أديل منهم للغزنوية ثم للسلاجقة.

ظهرت دولة بني سبكتكين في غزنة وأديل لهم من سادتهم السامانيين أو — كما يقول بديع الزمان

أظلت شمس محمود ... على أنجم سامان

وسبكتكين تركي لا فارسي، ولكنه مكن لنفسه في بلاد الفرس، وكان لدولته شأن عظيم في آدابهم. وجاء السلاجقة فنسخوا كل هذه الدول. وكان لهم من السلطان وبسطة الملك مالم يتح لدولة قبلهم من غير الخلفاء: وكان مع هؤلاء أو بعدهم دول ذات شأن: منها

الدولة الزيارية في طبرستان التي منها شمس المعالي قابوس بن وشمكير وابنه منوجهر فلك المعالي وحفيده كيكاوس عنصر المعالي، ودولة ملوك خوارزم الصغيرة التي قضى عليها محمود وملوك خوارزم العظام الذين تسلطوا على معظم ايران قرناً وربع قرن والذين كانوا سبباً في إغارة التتار وكانوا أول ملكهم، والدولة الغورية التي قضت على الغزنويين في أفغانستان

هذه هي الدول التي صرفت أمور الفرس منذ القرن الرابع الهجري. ويرى منها أن الفرس لم يفلحوا في إقامة دولة عظيمة تضم أرجاء بلادهم، وإنما كان السلطان الشامل للدولتين تركيتين الغزنوية والسلاجقة، وما عرفنا أن ثورات فارسية عظيمة حاولت التخلص من هاتين الدولتين. وهذه مسألة جديرة أن تغير آراء الذين يريدون تفسير كل حركة في ايران في تلك القرون بالعصبية الفارسية.

* * *

الآن نرجع الى الأدب الفارسي نراقب منشأه ونتعقب تطوره منذ بدأ الى عصر التتار؛ فاما ما بعد التتار فنرجيء الكلام فيه إلى مقال آخر.

انا لا نعرف شيئا عن الشعر الفارسي قبل الاسلام حتى ليظن أن الفرس لم يكن لهم منه حظ كبير، ولأمر ما نسب بعض كتاب الفرس أول شعر فارسي الى بهرام جور، وقالوا: انه أخذ الشعر من العرب اذ تربى في الحيرة. يذكر هذا محمد عوفي في لباب الألباب وشمس قيس في كتاب المعجم، ويزيد الأخير أنه قرأ في بعض الكتب الفارسية أن علماء عصر بهرام لم يستجيزوا منه إلا قول الشعر، وأن آذرباد بن زرادستان الحكيم بالغ في نصحه ليترك الشعر تنزها عن معايبه؛ ثم يقول إن بهرام أتصح ومنع أولاده وذوي قرباه أن يقرضوا الشعر. ثم يقول: من أجل هذا كانت مدائح باربد وأغانيه عند كسرى برويز طبا مشورة لا نظم فيها.

ويقول ابن قتيبة:

«وللعرب شعر لا يشركها أحد من الأمم الأعاجم فيه على الأوزان والأعاريض والقوافي والتشبيه ووصف الديار والآثار، والخيال والرمال والفلوات وسرى الليل، والنجوم. وإنما كانت أشعار العجم وأغانيهم في مطلق من الكلام «منثور» ثم سمع بعد قوم منهم أشعار العرب وفهموا الوزن والعروض فتكلفوا مثل ذلك في الفارسية وشبهوه بالعربية.»

وأما في العصر الاسلامي فلا ريب أن الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب لا يتقدمون العصر السامانى. غير أن في كتب الأدب الفارسي روايات عن شعر قيل قبل هذا العهد، وهي على علاتها لا تخلو من دلالة على أدب فارسي أقدم مما نعرف عسى أن يبينه التاريخ يوما.

يقول محمد عوفي معللا ظهور الشعر الفارسي الحديث ما يأتي مترجما مختصراً: «حتى اذا سطعت شمس الملة الحنيفية على بلاد العجم بجاور ذوو الطباع اللطيفة من الفرس فضلاء العرب واقتبسوا من أنوارهم ووقفوا على أساليبهم، اطلعوا على دقائق البحور والدوائر وتعلموا الوزن والقافية والردف والروي والاسطاء والاسناد والارتكان والفواصل. ثم نسجوا على هذا المنوال.

ثم يروي أسانا أربعة لشاعر اسمه عباس مدح بها المأمون في مرو سنة ١٩٣ منها:

كس برين منوال بيش أرمن جين شعرى نكفت
مر - زبان پارسى را هست تا اين نوع بين
ليك زان كفتم من اين مدحت ترا تا أين لغت
كيرد أز مدح وثاء حضرت نو زيب وزين

وترجمتها:

ما قال أحد قبلي شعراً كهذا. وما كان للسان الفارسي عهد به. وانما نظمت لك هذا المديح لتزدان هذه اللغة بمدحك والثناء عليك.

فأعطاه المأمون ألف دينار عينا، وبالغ في اكرامه — يستمر عوفي فيقول: «ولم ينظم الشعر الفارسي أحد بعده حتى كانت نوبة آل طاهر وآل الليث فظهر شعراء قليلون، فلما كانت دولة السامانيين ارتفع علم البلاغة، وظهر كبار الشعراء».

ويروي شمس قيس أن أول من قال الشعر الفارسي أبو حفص السغدي من سغد سمرقند وكان حاذقا في الموسيقى، وقد ذكره أبو نصر الفارابي وصور آلاته الموسيقية وقد عاش حتى سنة ٣٠٠ وينسب اليه هذا البيت:

آهوى كوهى دردشت جكونه دودا؟
جوندار ديار ى يار جكونه رودا؟

«كيف يعد وهذا الظبي الجبلي في الصحراء؟، انه لا حبيب له فكيف يسير بغير حبيب؟»

فاما رواية عباس المروزي فان المؤرخ الناقد يرتاب فيها لأن غريبا ان يبدأ الشعر الفارسي بهذا الأسلوب المتين ثم يصمت الشعراء أكثر من مائة سنة لا يؤثر عنهم شيء. وأما رواية السغدي فراجعة الى العصر الذي بدأ فيه الشعر الفارسي وسجل لنا التاريخ بعض شعرائه.

ومهما يكن من شيء فاتفاق مؤرخي الآداب على أن أول شاعر فارسي عظيم هو أبو جعفر الرودكي شاعر نصر بن أحمد السامانى — الذي يسميه معروفي البلخي (سلطان شاعران) ويقول فيه البلعمي: أنه لا نظير له بين العرب والعجم، ويعترف الدقيقي والعنصري بتقدمه.

«يتبع»